مُعضِلةُ الألَم

أفكارٌ ثاقبة في أحد أعقد تحدِّيات الحياة
والإيمان المسيحيّ

سي. أس. لويس

ترجمة: د.أوسم وصفي

أوفير
ophir

The Problem of Pain by C. S. Lewis © C. S. Lewis Pte Ltd. 1940
www.cslewis.com

Cover design and illustration by Kimberly Glyder.

Arabic Edition © 2020 by **Ophir Publishers & Printers.**

Published under license from the C. S. Lewis Company Ltd.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

معضلةُ الألم

الطبعة العربيَّة الأولى ٢٠٢٠م
حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢، عمَّان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+
Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

ISBN 978-90-5950-278-9

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم العنوان: الخطَّاط يعقوب إبراهيم

إهداء

إلى أعضاء مجموعة

"ذا إنكلينغز" (The Inklings)

لقد تألَّمَ ابن الله حتَّى الموت، ليس كي لا يتألَّمَ البشر،
بل ليكونَ ألَمُهُم مثل ألمه.

جورج ماكدونالد (George Macdonald)،
عظات غير منطوقة، السلسلة الأولى (Unspoken Sermons, First Series)

المحتويات

تمهيد ١٣

الفصل ١: الطرحُ العامُّ للموضوع ١٧

الفصل ٢: القدرة الكلِّيَّة لله ٣٥

الفصل ٣: صلاحُ الله ٤٩

الفصل ٤: شرُّ الإنسان ٧١

الفصل ٥: سقوط الإنسان ٨٩

الفصل ٦: ألم الإنسان ١١٣

الفصل ٧: ألم الإنسان- تكملة ١٣٩

الفصل ٨: الجحيم ١٤٩

الفصل ٩: ألم الحيوان ١٦٣

الفصل ١٠: السماء ١٨١

الملحق ١٩٥

تمهيد

عندما اقترح عليَّ السيِّد آشلي سامپسون (Ashley Sampson) تأليفَ هذا الكتاب، طلبتُ أن يكونَ بقلم كاتِبٍ مجهول. فلو كُنتُ سأقولُ ما أعتقِدُهُ بالفِعل عن الألم، لاضطُرِرتُ إلى التصريح بمقولات تبدو شُجاعةً، لكنْ سيظهَرُ مدى سخفها عندما يَعرفُ القارِئُ مَصدرَها. غير أنَّ طلبي رُفِضَ؛ لأنَّه لا يتماشى مع السلسلة. لكنَّ السيِّد سامپسون أشارَ إلى أنَّ في وُسعي أن أكتُبَ تمهيدًا أشرح فيه أنِّي لم أستطع أن أعيشَ على مُستوى مبادئي! وبالتحديد هذا الطرح المدهش الذي أنا مُزمع أن أبدأه. ولأعترف دَفعَة واحدة، مُستخدمًا كلمات السيِّد الكريم والتر هلتون (Walter Hilton)، أنِّي في هذا الكتاب "أشعر بأنِّي بعيدٌ عن المشاعر الحقيقيَّة الواجب أن يشعُرَ بها المرء تُجاه المكتوب، حتَّى إنِّي لا أطلبُ سوى الرحمةِ، وأن أرغب في هذه الرحمة إنْ كنتُ أستطيع".[1] لكنْ لهذا السبب بالتحديد هناك نقدًا واحدًا لا يُمكن أن أتعرَّض له.

1) Scale of Perfection, I, xvi.

لا يستطيع أحد أن يقول عنِّي: "يسخر من النُّدوب مَن لم يتعرَّضْ للجروح"[٢]؛ لأنِّي إنسانٌ لا يتَحَمَّل حتَّى تَخَيُّل الألم. وإنْ كان هُناك إنسانٌ في مأمَنٍ من التقليل من شأن هذه المُصيبة فهو أنا. ويجب أن أُضيف أيضًا أنَّ الهدفَ الوحيدَ من تأليف هذا الكتاب هو أن أحُلَّ المُعضلةَ العقليَّة التي يُثيرُها الألم، أمَّا الهدف الأصعب جدًّا والأسمى حقًّا، فهو تعليم الناس الجَلَد والشجاعة في مواجهة الألم، حيث إنِّي لم أبلُغْ من الحماقة ما يجعلني أحسبُ نفسي مؤهَّلًا لذلك، ولا لديَّ شيء أقدِّمه إلى قرَّائي سوى اقتناعي أنَّ القليلَ من الشجاعة، في ما يتعلَّق بتحمُّل الألم، يُساعد أكثرَ من الكَثيرِ من المعرفة، والقليلُ من التَعاطُف الإنسانيِّ أفضلَ من الكثير من الشجاعة، وأقلُّ لَمَسَةٍ من مَحَبَّةِ الله تُفيدُ أكثرَ من الجَميع.

إذا قرأ أيُّ لاهوتِيٍّ هذه الصفحات، فسيكتشفُ بكلِّ سهولة أنَّها لشخص عاديٍّ، بل شخصٍ هاوٍ. وباستثناء ما هو موجود في الفصلَين الأخيرَين، اللذَين يتضمَّنان أجزاءً أعتَرِفُ أنَّها تكهُّنيَّة، فأظنُّ أنِّي أعدتُ تأكيد عقائدَ قديمةٍ وقويمة. إذا كان هُناك أيُّ جزء من هذا الكتاب يُمكن أن نحسبَه "أصيلًا"، بمعنى أنَّه جديدٌ أو غير تقليديّ، فهو بالتأكيد منافٍ لرغبتي، وناتجٌ عن جهلي. أنا أكتب بصفتي رجلًا عاديًّا من عامَّة شعب الكنيسة الأسقفيَّة الإنكليزيَّة، لكنِّي حاولت ألَّا أتبنَّى شيئًا إلَّا إذا كان من الأمور المُعترف بها من جانب كلِّ المسيحيِّين المُعتمِدين والمُتناوِلين.

---

٢) مقولةٌ على لسان روميو في مُستهل المشهد الثاني من مسرحية "**روميو وجولييت**" لشيكسبير (المترجم).

وحيث إنَّ هذا ليس عملًا من أعمال المعرفة الواسعة، فإنِّي لم أبذل جَهدًا كبيرًا في تتبُّع الأفكار أو الاقتباسات للوصول إلى مصادرها الأساسيَّة، عندما لم يكن ذلك الوصول سهلًا. أيُّ لاهوتيٍّ يقرأ هذا الكتاب، سيكتشف بسهولة ما قرأتُه، وسيعرفُ أنَّه كان مقدارًا قليلًا.

سي. أس. لويس
كلِّيَّة ماغدالين، أكسفورد
(Magdalen College, Oxford)، ١٩٤٠م

١

الطرحُ العامُّ للموضوع

"أتعجَّبُ من الجراءة التي يُباشر بها هؤلاء بالكلام عن الله. ففي مقالة مُوَجَّهة إلى غير المؤمنين، يبدأون بفصلٍ يحاولون فيه إثبات وجود الله من أعمال الطبيعة...إنَّ هذا يعطي قُرَّاءَهُم المسوِّغَ أن يعتقدوا أنَّ أدلَّة ديننا بالغة الضعف... إنَّ من الحقائق اللافتة للنظر أنَّه لا يوجد أيُّ كاتب من كَتَبة الكتاب المقدَّس استخدم الطبيعة ليُثبت بها الله".

پاسكال (Pascal)، "الأفكار" (Pensées)،
الكتاب الرابع، ٢٤٢-٢٤٣

لو أنَّ شخصًا سألني مُنذ سنواتٍ ليست بعيدة عندما كُنتُ مُلحدًا، قائلًا: "لماذا لا تؤمن بالله؟" لكانَ جوابي شيئًا من قَبيل: "انظُر إلى الكون الذي نَعيشُ فيه. إنَّ أغلَبَه يتكوَّن من فضاءٍ خالٍ مُظلِمٍ تَمامًا، وباردٍ إلى حدٍّ

غير معقول. والأجسام التي تتحرَّك في هذا الفضاء قليلةٌ جدًّا وضئيلةٌ مقارنةً بالفضاء نفسه حتَّى إنَّه لو كان كلٌّ منها مزدحمة بمخلوقات غامرةِ السعادة، لظلَّ من الصعب الإيمان بأنَّ الحياة والسعادة كانتا أكثرَ من مجرَّد نتائج جانبيَّة للقُوَّة التي صنعت الكون. والكون على حالته هذه يجعل العلماء يعتقدون أنَّ من المحتمل أنَّ القليلَ جدًّا من الشموس في الفضاء- ربَّما ولا واحدة منها باستثناء شمسنا- لديها أيُّ كواكب فيها حياة. وفي نظامنا الشمسيّ، من غير المُرجَّح أن يحملَ أيُّ كَوكبٍ بخلاف الأرضِ شكلًا من أشكال الحَياة. والأرضُ نفسُها كانت موجودةً دون حياة على مدى ملايين السنين، وربَّما ستظلُّ موجودةً ملايينَ أخرى من السنين بعد أن تكونَ الحياةُ قد غادرَتها. وما شكل الحياة في أثناء وجودها على الأرض؟ إنَّها مُنظَّمة بحيث إنَّ كلَّ أشكالها لا يُمكن أن تحيا دون أن تفترسَ أشكالًا أُخرى من الحياة. في الأشكالِ الدُّنيا، تتضمَّنُ هذه العمليَّة المَوتَ وحَسب، أمَّا في الأشكال العُليا من الحياة، فتَظهرُ خاصِّيَّةٌ جديدةٌ اسمُها الوَعي، وهي تجعل عمليَّةَ الافتراسِ هذه مَصحوبةً بالألم. تُسبِّبُ المخلوقاتُ الألم عندما تُولَد، وتعيش بإصابة بعضها بعضًا بالألم، ثمَّ تموتُ في النِّهاية وهي تتألَّم. وفي أكثر المخلوقات تعقيدًا، أي في البشر، تَظهَرُ صِفَةٌ أُخرى أيضًا، وهي التي نُسمِّيها العقل، الذي به يستطيع الإنسانُ أن يتوقَّعَ أله، وهَكذا يَصيرُ الألمُ الجسديُّ مَسبوقًا بحالةٍ من الألم النفسيّ، وليس ذلكَ فَقَط، بل يَستَطيعُ الإنسانُ أيضًا بواسطة العَقل، أن يَرى مُسبَّقًا موته، في حين يرغبُ بشدَّةٍ في البقاء. كما أنَّ العقلَ يُمكِّن الإنسانَ بطُرقٍ عدَّة مبتكَرة، أن يُسبِّب لأخيه الإنسان، أو للمخلوقات

غير العاقلة، قدرًا من الألم أكبر ممَّا كان مُمكنًا دون ذلك العقل. وقد استغلَّ البشر هذه القوى العقليَّة أقصى استغلال؛ فتاريخ البشر هو بصورة كبيرة سِجِلٌّ للجريمة والحَرب والمرض والرُّعب، يتخلَّله قدرٌ من السعادة يكفي ليجعَلَ الإنسانَ يتألَّم أيضًا خوفًا من فقدان هذه السعادة، وعندما يفقدها، فإنَّه يظلُّ يتعرَّض للبؤس المرير كلَّما تذكَّرَ أنَّه كان سعيدًا في وقتٍ من الأوقات. ومن وقتٍ إلى آخر، بدأ البشر يُحسِّنون حالتَهم قليلًا، وظهرَ ما نُسمِّيه الحضارة.

وكلُّ الحضارات، بعد أن تَظهَر وتَزدَهِر، تتعرَّض للاندثار. وحتَّى في أثناء ازدهارها، تُسبِّب آلامًا خاصَّةً بها، ربَّما تكفي لمحو ما سبَّبته من تخفيف الآلام المعتادة للإنسان. وفي ما يتعلَّقُ بحضارتنا الحاليَّة، فلا أَحَدَ يجادلُ أنَّها فعلَتْ هذا، كما يُرجَّحُ أنَّها حضارةٌ ستندثر كسابقاتها. وحتَّى إنْ لم يحدُثْ هذا. فماذا إذًا؟ هذا الجنس محكوم عليه بالموت، بل إنَّ كلَّ جنسٍ يأتي محكومٌ عليه بالموت؛ لأنَّ الكون، كما يقولون لنا، يفقد طاقته باستمرار، وسيأتي إلى وقت يصبحُ فيه كُتلةً متجانسةً من المادَّة درجة حرارتها منخفضة. كلُّ القصص ستنتهي إلى لا شيء: كلُّ الحياة ستنفَدُ في النهاية، وتصير امتعاضةً بلا معنى فوق وجهٍ أبلهَ من المادَّة غير المُتناهية. إذا طلبتَ إليَّ أن أومنَ بأنَّ هذا من أعمال روحٍ كلِّيِّ القدرة والإحسان، فسأجيبُك أنَّ كلَّ الأدلَّة تشيرُ إلى خلاف ذلك. إمَّا أنَّه لا يوجد مثل ذلك الروح خلف الكون، وإمَّا أنَّ هناك روحًا غيرُ مُبالٍ بالخيرِ أو الشَّرّ، أو ربَّما هو روحٌ شرِّير".

هناك سؤالٌ واحدٌ لم أحلُم بتاتًا بطرحه. لم ألحَظْ بتاتًا أنَّ نقطةَ القوَّة والسهولة في الحُجَّة التشاؤميَّة، هي نفسها مُعضلة. إذا كانَ الكونُ شرِّيرًا، أو حتَّى نصف شرِّير، فمن أين جاءَ بنو البشر بفِكرة أن ينسبوا ذلك الكونَ إلى نشاطِ خالقٍ صالحٍ ومُحبّ؟ ربَّما يكونُ البشر حمقى، لكنَّهم ليسوا بهذا المستوى من الحماقة. إنَّ الاستنباطَ المُباشرَ للأبيض من الأسود، وللجذر الصالح من الزهرة الشرِّيرة، وللصانع الحكيم من الأعمال العشوائيَّة ينبغي أن يزعزع الإيمانَ، لا أن يُثبِّته.

لا يُمكن أن تكون رؤية الكون من منظور الخبرة البشريَّة الأساس الذي بُني عليه الإيمان والدِّين، بل لا بدَّ من أنَّ الدِّين بُنِي على مصدرٍ آخَرَ **بالرُّغم** من الخبرة البشريَّة.

ويكونُ من الخطأ أن نُجيبَ قائلين إنَّ أجدادَنا كانوا جُهلاء لذا صدَّقوا أوهامًا بشأن الطبيعة تُسبِّب لهم الرضى والسعادة، أوهامًا سبق وقضى تقدُّم العلم عليها. لقرون عدَّة، كان كلُّ البشر مؤمنين، وكانوا أيضًا يعرفون حقيقة الحجم المُفزع والفراغ الشديد للكون. ستقرأ في بعض الكتب أنَّ رجالَ العصور الوسطى كانوا يعتقدون أنَّ الأرضَ مسطَّحة والنجومَ قَريبة، لكنَّ هذه كذبة. لقد قال لهُم بطليموس إنَّ الأرضَ نقطة رياضيَّة ليس لها حجم مقارنةً ببُعدها عن النجوم الثابتة– بمسافة قدَّرها أحد النصوص المشهورة في العصور الوسطى بنحو ١٨٨ مليون كيلومتر. وفي أزمنة أسبق، حتَّى منذُ البدايات، لا بدَّ أنَّه كان للناس الإحساس بالضَّخامة المرعِبة، وذلك من مَصادر أكثر وضوحًا.

من جهة إنسان ما قبل التاريخ، لا بدَّ أنَّ الغابة المُجاورة كانت تبدو لانهائيَّة بما يكفي ليشعُرَ بالصِّغر والوحشة والضآلة. كما أنَّ الإحساسَ بالغُربة والإزعاج الخارجيِّ، والخوف الذي نشعر به الآن عندما نفكِّر في الأشعَّة الكونيَّة والشموس التي تبرد، كان ينتابه من الحيوانات البرِّيَّة المُرعبة التي كانت تأتي لتتشمَّم وتعوي كلَّ ليلةٍ عند أبواب بيته. وبالتأكيد، في كلِّ مرحلة من مراحل التطوُّر البشريّ، كان الألمُ وخسارةُ الحياة البَشَريَّة أمرَين واضِحَين ومُصاحِبَين دائمًا لوجودِ الإنسان.

إنَّ دينَنا بدأ مع اليهود، وقد كانوا شعبًا مضغوطًا ومُعتَصَرًا وسطَ أمَمٍ عظيمة مُحاربة، وكان يتعرَّضُ دائمًا للهزيمة والسبي. ربَّما كان شعبًا شبيهًا ببولندا أو أرمينيا في العصر الحديث، يَحمل قصصًا مأساويَّة من الاجتياح من الأمم القويَّة المُجاورة بما في ذلك من قهرٍ وذلٍّ. وإنَّ من الهُراء أن نَضَعَ الألمَ ما بين مُكتشَفات العِلم. ضعْ هَذا الكتابَ جَانِبًا، وتَأَمَّلْ لخمس دقائقٍ حقيقةَ أنَّ كلَّ الأديان الكُبرى قد نودي بها، ومُورِسَت في عالم ما قبل الكلوروفورم (مخدِّر يخفِّف آلام الجراحات).

في كلِّ العصور إذًا، كان استنباطُ حِكمةِ الخالق وصلاحه من تَسلسلِ الأحداث على الأرض، أمرًا مُنافيًا للعقل، ولم يحدُثْ قَطُّ.[1] إنَّ للدِّين مصدرًا آخَرَ. وفي ما يلي، يجب أن يُفهَم أنِّي لا أدافع أصلًا

---

١) لم يحدث بتاتًا في بدايات الدِّين. لكنْ ظهَرتْ بعدَ الإيمان بالله بما يكفي من نظريَّات الدفاع عن صلاح الله في مواجهة وجود الشرّ، لكي تشرح مآسيَ الحياة وتُفسِّرها وتعلِّلها.

عن صحَّة الإيمان المسيحيِّ، بل أشرحُ مصدرَه. وهذه مُهمَّةٌ أتصوَّرُ أنَّها ضروريَّة، إذا أردنا أن نضع معضلة الألم في سياقِها السَّليم.

في كلِّ الديانات المُتطوِّرة، سنجدُ ثلاثَة خيوط أو عناصر، وفي المسيحيَّة هناك عُنصرٌ رابع. أوَّلُ هذِه العناصر، ما سمَّاه البروفيسور أوتو (Otto) اختبار **حضورٍ ألوهيّ** (Numinous).[٢] وإلى مَن لم يتقابَلوا مع هذا التعريف، يُمكنهم أن يدخلوه باستخدام هذه الفكرة. افترض أنَّه قيل لك إنَّ هناك نمرًا في الغرفة المجاورة. بالتأكيد ستشعر عندئذٍ بأنَّك في خطر، وقد تشعرُ بالخوف. لكنْ إذا قيل لك: "هناك شبحٌ في الغرفة المجاورة"، وصَدَّقت ذلك، فستشعر بما يوصف دائمًا بأنَّه خوفٌ، لكنَّهُ سيَكونُ خَوفًا من نوعٍ آخر. لن يكونَ مبنيًّا على مَعرِفة الخطر؛ لأنْ لا أحدَ يخاف ممَّا يُمكن أن يفعلُه الشبح به، بل فقط من فكرة أنَّه شبح. إنَّه خوفٌ ممَّا هو "فائق للطَّبيعة" أكثر من كونه خوفًا من خطرٍ معلوم. ويمكن أن نسمِّيَ هذا الخوف "رهبة". عندما نتلامس مع ما هو فائق للطبيعة، نصل إلى حدود اختبار حضورٍ ألوهيّ. افترِضِ الآنَ أنَّه قد قيل لك ببساطة: "هناك روحٌ قدير في الغرفة"، وصدَّقت ذلك. عندها ستكون مشاعرُك أقلَّ شبهًا بمجرَّد الخَوف من الخطر، لكن اضطرابَك سيكونُ أعمقَ. ستشعرُ بالدهشة والذهول، مع قدر من الانكماش-

٢) النومينوس هو حضورٌ أو قوَّة أو إدراكٌ للأرواح أو الألوهة؛ أي ما قد يحسبه الإنسان إلهًا، سواء كان ذلك الإله الحقيقيَّ أم أيَّ روحٍ يحسبه ذا مكانةٍ مُرهِبة. أوَّل من أشاع استخدام هذا المصطلح هو اللاهوتيُّ الألمانيُّ رودلف أوتو (Rudolf Otto)، وكان سي. أس. لويس من أشهر من أعاد استخدامه لاحقًا (الناشر).

إحساس بعدم الكفاءة للتعامل مع مثل هذا الزائر، والرغبة في السجود أمامه- وهو شعور يُمكن التعبير عنه بكلمات شيكسبير: "تحت يديه شعرتُ بعبقريَّتي تُنتَهَر". يمكن وَصفُ هذا الشعور بالرَّهبة. أمَّا ما يُثيره فهو **الحضور الألوهيّ**.

والآن لا يوجد أمرٌ أكيدٌ أكثر من أنَّ الإنسانَ، مُنذ وقت باكر جدًّا، بدأ يؤمن بأنَّ الكونَ مَسكونٌ بالأرواح. ربَّما يفترض البروفيسور أوتو (Otto)، ببساطة أكثر من اللازم، أنَّ هذه الأرواح من البداية كانت تُعامل بنوع من رهبة الحضور الألوهيّ. وهذا أمرٌ يستحيل إثباته؛ حيث إنَّ الألفاظ التي كانت تُعبِّر عن الرهبة من الحضور الألوهيّ والخوف من الخطر كانت متطابقة. فنحن لا نزال نستخدم كلمة "الخوف" للتعبير عن الخوف من الأشباح، وكذلك الخوف من ارتفاع الأسعار. لذلك من المُحتمل نظريًّا أنَّه كان هناك وقتٌ حسبَ فيه البشرُ هذه الأرواحَ أرواحًا خَطِرةً، وشعروا حيالها بما كانوا يشعرون به حِيال النمور. أمَّا المؤكَّد، فهو أنَّ تلك الخبرة مع الحضور الألوهيِّ لا تزال موجودة الآن، وإذا بدأنا بأنفُسِنا، فنستطيع أن نقتفيَ أثرَها في الماضي.

ربَّما هناك أمثلةٌ معاصرة (إذا لم تمنعنا الكبرياء من البحث عن مثل هذه الأمور في العصر الحاضر) في رواية "**رياح الصفصاف**"[٣]

---

٣) رواية خياليَّة للأطفال. كتبها كينيث غراهام (Kenneth Grahame)، ونُشرت عام ١٩٠٨م (المترجم).

(The Wind in the Willows) عندما قابل الخُلد والفأر الإله پان[٤] (Pan) على الجزيرة. قال الخُلْد، وقد وجد أخيرًا ما يكفي من أنفاس ليهمس، وهو ينتفض: "أيُّها الفأر، هل أنت خائف؟" فتَمتَم الفأر وعيناه تُشِعَّانِ بحُبٍّ لا يُنطَقُ به قائلًا: "خائف؟ منه؟ لا، بتاتًا. لكن...لكن آه يا خُلد! إنِّي خائف".

ولو عُدْنا إلى الوراء نحوَ قرنٍ من الزمن، لَوَجَدنا الكثيرَ من الأمثلة في شعر وردزورث[٥]، ربَّما أجملها تلك الفِقرةُ في كتابه الأوَّل "**الاستهلال**"[٦] *(Prelude)* التي يصف فيها خبرته عندما كان يُجدِّف في البحيرة في قارب مسروق. ويمكن أيضًا العودة إلى الخلف أكثر لنجدَ مثلًا قويًّا ونقيًّا في شعر مالوري[٧] (Malory)، ولا سيَّما في الجزأين السابع عشر والثاني والعشرين، حيث بدأ غالاهاد[٨] (Galahad) "يرتعد بشدَّة بينما شاهدَ الأمور الروحيَّة وهو صاحبُ الجسد البشريِّ الفاني".

---

٤) إله قطعان المواشي، ويجري تمثيله تقليديًّا بأنَّ له قرونَ جديٍ وحوافره، فضلًا عن جسم إنسان. كان القدماء يفترضون أنَّ ظهوره المباغت هو ما يجعل الأغنام تضطرب. ومنه جاءت الكلمة الإنكليزيَّة "Panic" بمعنى "هلع" (المترجم).

٥) وليَم وردزورث (William Wordsworth) رائد المدرسة الرومانسيَّة في الشعر الإنكليزيِّ، وعاش في الفترة ما بين ١٧٧٠ و١٨٥٠م (المترجم).

٦) سيرة ذاتيَّة في صورة قصيدة للشاعر وليَم وردزورث (المترجم).

٧) سير توماس مالوري (Sir Thomas Malory) كاتبٌ إنكليزيٌّ ألَّف رواية "**الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة**" *(King Arthur and the Knights of the Round Table)* . عاش في الفترة ما بين ١٤١٥ و١٤٧١م (المترجم).

٨) أحد فرسان المائدة المستديرة (المترجم).

وفي بداية العصر المسيحيّ، نجد تعبيرًا عن ذلك في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتيِّ عندما سقط الكاتب "كمَيِّت" عند قدمَيِ السيِّد المسيح القائم من الأموات. وفي الأدب الوثنيِّ، نجد الصورة التي يرسمها أوڤيد[٩] (Ovid) في البُستان المُظلم فوق "الآڤنتاين"[١٠] (Aventine) والتي تجعلك تنطق للوهلة الأولى: **لقد دخل الآلهة.**[١١] إنَّ المكان مسكون، أو أنَّ ثمَّة "حضورًا" ما هُنا، وما يكتبه ڤيرجل[١٢] (Virgil) ليصفَ لنا قصر لاتينَس (Latinus) عندما يقول: "رهيب، ومُحاط بالغابات، ومحفوف بقداسة الأيَّام الخوالي".[١٣] كما توجد قطعة من الأدب اليونانيِّ منسوبة إلى إسخيليوس (Aeschylus)، وإنْ كان ذلك غير محتمل، تُخبرنا عن الأرض والبحر والجبل وهي ترتعدُ "من فرط رهبة سيِّدهم"[١٤]، ويُمكن أن نعودَ إلى الوراء أكثر من ذلك لنجد حزقيال يخبرنا عن "البَكرات" في رؤيته الإلهيَّة، أنَّها كانت "عالية ومُخيفة".[١٥] ويعقوب وهو يستيقظ من النوم، ويقول "ما أرهب هذا المكان!"[١٦]

---

٩) شاعرٌ رومانيٌّ عاش في عصر أغسطس قيصر، ووُلد عام ٤٣ ق. م (المترجم).

١٠) إحدى الهضاب التي بُنِيَت عليها مدينة روما (المترجم).

١١) **فاستي٣***(Fasti)*، ص ٢٦٩.

١٢) شاعرٌ رومانيٌّ قديم، عاش في الفترة ما بين ٧٠ ق. م و١٩ م (المترجم).

١٣) آين (Aen) ٤، ص. ١٧٢.

١٤) القطعة ٤٦٤. نسخة سيدڤيك (Sidgwick edition).

١٥) حزقيال ١: ١٨

١٦) تكوين ٢٨: ١٧

إنَّنا لا نعلم حتَّى متى يجب أن نرجعَ في التاريخ البشريّ، لنعرفَ الكيفيَّة التي بدأت بها هذه الخبرات والمشاعر. إنَّ البشر الأوائل كانوا بالتأكيد يؤمنون بأمور من شأنها أن تثيرَ فينا المشاعر نفسها، إن كنَّا نحن نؤمن بها، ومن ثَمَّ يبدو أنَّ رهبةَ الحضور الألوهيِّ قديمةٌ قِدَم البشريَّة ذاتها. لكنَّ اهتمامنا الأساسيَّ ليس بشأن تاريخها. الشيءُ المُهمُّ أنَّها، بصورةٍ أو بأخرى، جاءت إلى الوجود، وهي مُنتشرة ولا تختفي من الذِّهن حتَّى مع تقدُّم الحضارة والمدنيَّة.

والآن فإنَّ هذه الرهبة لا تَنتُجُ من استنباطٍ عقليٍّ من الكون المنظور. كما لا يُمكنُ استنباطُ ما هو فائق للطبيعة من مجرَّدِ الإحساسِ بالخَطَر، فما بالك باستنباط الحضور الألوهيّ. ربَّما تقول إنَّ من الطبيعيِّ للإنسان القديم، الذي كان مُحاطًا بالكثير من المخاطر المحدِقة، ومن ثَمَّ كان يشعر بالخوف الشديد- أن يخترعَ ما هو فائق للطبيعة والحضور الألوهيّ. من ناحية، هذا صحيح، لكنْ لنحاوِلْ أن نفهمَ ما نقصده. إنَّك تشعر بأنَّ ذلك طبيعيٌّ لأنَّك، إذ تشترك في الطبيعة الإنسانيَّة نفسها مع أسلافك القدماء، تستطيع أن تتخيَّل نفسك تتجاوب مع العُزلة المحفوفة بالمخاطر بالطريقة نفسها، وردُّ الفعل هذا هو "طبيعيٌّ" حقًّا، أي أنَّه متوافِقٌ مع الطبيعة البشريَّة. لكنَّه ليس "طبيعيًّا" بمعنى أنَّ فكرةَ ما هو فائقٌ للطبيعة أو ألوهيٌّ بالفعل مُتضمَّنةٌ في فكرة الخطير، أو أنَّ أيَّ استقبال للخطر أو أيَّ خوف أو نفور من الجروح أو الموت يمكن أن يؤدِّيا إلى أدنى مفهوم من الرعب من الأشباح أو الرهبة من حضورٍ

ألوهيّ، في ذهنٍ لا يفهَمُ هذه الأشياء مُسبَّقًا. عندما ينتقل الإنسانُ من الخوف الجسديِّ إلى الرعب أو الرهبة، فهذا يُعدُّ قفزةً؛ حيث إنَّه يَخشى شيئًا لا يُمكن أن ينتُج عن الحقائق الملموسة والاستنتاجات المنطقيَّة النابعة منها، كما هي الحال في حالة الخوف الجسديّ. كلُّ المحاولات التي قُدِّمَت لشرح الرهبة الروحيَّة تفترض مُسبَّقًا ما تريد شرحَه- كما يفعلُ علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) حاسبين إيَّاه مُستمدًّا من الرهبة من الموتى، دون أن يشرحوا لنا السبب الذي يجعلنا نرهب الموتى (وهم أقلُّ البشر خطورة). وبالطريقة نفسها، لا توجد صفات موضوعيَّة محدَّدة للشيء الجميل تجعلنا نشعر بجماله، أو تشيرُ ولو من بَعيدٍ، إلى ما نَقصِدُه عِندما نَصِفُ مَخلوقًا بالجمال دون التعرُّض الذاتيِّ المُباشر للخبرة الجماليَّة. لا يوجد إذًا وصفٌ ملموسٌ لأيَّة بيئة إنسانيَّة يُمكن أن يتضمَّن ما هو فائق للطبيعة وألوهيّ، أو حتَّى أن يشيرَ إليهما. في الواقع، يبدو أنَّ هناك وجهتَيْ نظر فقط يُمكن أن نتبنَّاهما بشأن الرهبة: إمَّا أنَّها مجرَّد حيلة يقوم بها العقلُ البشريُّ، ولا يقابلها شيءٌ موضوعيٌّ ولا تؤدِّي أيَّة وظيفة بيولوجيَّة، لكنْ لا يبدو أنَّ لهذه الحيلة أيَّ مَيلٍ إلى الاختفاء من العقل البشريِّ حتَّى في أكمَلِ صُوَره مثل عقل الشاعر أو الفيلسوف أو القدِّيس- وإمَّا أنَّ هذه الرهبة هي خبرةٌ مباشرةٌ لما هو حقًّا فائق للطبيعة، ويُمكن إعطاؤه صفةَ الإعلان.

ليس مفهومُ الحضور الألوهيِّ مطابقًا لما هو صالحٌ أخلاقيًّا. ولو فكَّرَ الإنسانُ- الذي تغمره الرهبةُ عند اختبار مثل هذه الاختبارات-

في الحضور الألوهيّ، لقالَ إنَّه أمر "يَتَجَاوَزُ مَفاهيمَ الخَيرِ والشّر". وهَذَا يَصلُ بِنا إلى الخيط الثاني، أو العُنصُر الثاني، الذي يتكوَّن منه الدِّين. كلُّ البشر على مرِّ التاريخ يعترفون بنوع من الأخلاق، أي أنَّهم يشعرون تُجاه أفعال معيَّنة، بذلك الشعور أو الخبرة اللذين يُمكن التعبير عنهما بعبارات مثل "يجب عليَّ" أو "يجب عليَّ ألَّا...". تُشبِهُ هذه الخبرات الرهبة من جهةٍ واحدة: أنَّه لا يُمكن استنتاجُها منطقيًّا من البيئة أو الخبرات المادِّيَّة التي يختبرها الإنسان الذي يمرُّ بها. يُمكن أن تستخدم عباراتٍ مثل "أريد" أو "أجِدُني مُجبرًا" أو "أشعر بأنَّ من الأفضل" أو "لا أجرؤ" كما تشاء طالما أنَّك لا تجرِّدهم من أدنى تنويه عن "الوجوب" أو "عدم الوجوب". ومرَّة أخرى، فإنَّ المحاولات التي نُجريها لتحليل الخبرة الأخلاقيَّة إلى مكوِّنات سابقة لها أو مؤدِّيةٍ إليها، دائمًا ما تفترض الأمرَ ذاته الذي تودُّ شرحه- كما يستنتج أحدُ المحلِّلين النفسيِّين المشهورين من جريمةٍ في فترة ما قبل التاريخ هي قتل الأب.[١٧] إذا كان قتلُ الأب يسبِّب الذنب؛ فذلك لأنَّ الناسَ شعروا بأنَّه كان لا ينبغي أن يفعلوا ذلك. وإذا لم يشعروا بذلك، ما كان هناك شعورٌ بالذنب. إنَّ الأخلاقَ مثل الرهبة من الحضور الألوهيِّ هي قفزةٌ فيها يذهب الإنسان إلى ما وراء

١٧) يشير الكاتب هنا إلى سيغموند فرويد الذي حاول تفسير الذنب الذي يصيب ضمير الإنسان بأنَّه "خطيَّة أصليَّة" هي عندما قتل مجموعة من البشر البدائيِّين الأب الذي ولدهم ويحكمهم وصاروا يتوارثون هذا الذنب، بدل أن يكون الذنب مصدره قانونٌ أخلاقيٌّ وضعه الله (الناشر).

كلِّ ما تعطيه الحقائق المُختبرة المُباشرة. ولها سِمَةٌ واحِدةٌ مُميَّزة على نحوٍ لا يُمكن تجاهُلُه. إنَّ الأخلاقيَّات المقبولة ما بين الناس يُمكن أن تختلف، لكنَّها لا تختلف في أعماقها كثيرًا كما يُدَّعى، فإنَّها كلَّها تتَّفقُ في تحديد سلوكٍ يفشل في ممارستِه مَن يتقيَّدون بها. وهكذا يَقِفُ جميعُ البَشَرِ مُدانين، وذلك ليس على يد نظامٍ أخلاقيٍّ غريبٍ عنهم، بل هو في الواقع نظامُهُم، ومن ثَمَّ فإنَّ كلَّ البشر يشعرون بالذنب. العُنصرُ الثاني في الدِّين هو الوعي ليس بمجرَّد وجود قانون أخلاقيّ، بل أيضًا بوجود قانون أخلاقيٍّ يعترف به البشر دائمًا وينتهكونَه دائمًا. هذا الوعي ليس استنباطًا منطقيًّا، ولا غير منطقيٍّ، من حقائق الخبرة البشريَّة المُباشرة؛ فإذا لم نُحضره بأنفسنا إلى خبرتنا البشريَّة، فإنَّنا لا نَجده فيها. وهذا إمَّا وَهمٌ لا يُمكنُ فَهمُ مصدر مجيئه إلينا ولا كيف، وإمَّا أنَّه إعلان.

الخبرة الأخلاقيَّة وخبرة الحضور الألوهيُّ هما أبعد ما يمكن من أن تكونا الأمر ذاته، حتَّى إنَّهما يُمكن أن توجَدا لفتراتٍ طويلةٍ معًا دون إجراء اتِّصالٍ مُتبادَل. ففي أشكال كثيرة من الوثنيَّة، لا توجد علاقة وثيقة ما بين عبادة الآلهة، والمناقشات الأخلاقيَّة للفلاسفة. أمَّا المرحلة الثالثة من التطوُّر الدينيِّ فهي تنشأ عندما يوحِّدُ البشرُ ما بينهما، أي عندما يجعلون الحضور الألوهيَّ الذي يشعرون بالرهبة منه، حاميًا للأخلاق التي يشعرون بوجوبها. مرَّةً أخرى، ربَّما يبدو ذلك لك "طبيعيًّا" جدًّا. فماذا يُمكن أن يكون طبيعيًّا أكثر من أن

يعتقدَ الإنسان البدائيُّ الذي تملكته الرهبة واكتنفه الذنب، أنَّ القُوَّةَ التي تُرهِبُه هي نفسُها القُوَّةُ التي تُشعره بالذنب؟ وهذا حقًّا طبيعيٌّ للبشر، أي أنَّه موجود بصورةٍ طبيعيَّة، لكنَّ ذلك ليس واضحًا بتاتًا. إنَّ السلوكَ الفعليَّ لذلك الكون الذي يسكنه الحضور الألوهيُّ لا يُشبه بتاتًا السلوك الذي تُطالبنا الأخلاق به. فالأوَّل يبدو مُسرفًا وقاسيًا وظالمًا، والآخَر يفرضُ علينا العَكسَ تَمامًا. ولا يمكن تفسير الجَمعَ ما بين الاثنين على أنَّه مَحضُ تحقيقِ أمنية؛ فهو لا يُحقِّق أمنية أحد. إنَّنا لا نرغب ولو قليلًا في أن نرى القانونَ الذي لا تؤيَّد سُلطته المجرَّدة أصلًا، وقد تسلَّحَ بالقوَّة والسُّلطة غير المتناهية للحضور الألوهيّ. ومن بين كلِّ القفزات التي اتَّخَذَتْها البشريَّة في تاريخها الدِّينيّ، فإنَّ هذه القفزةَ هي الأكثر إدهاشًا. ليس من الغريب أنَّ أقسامًا كثيرةً من الجنس البشري رفضتها؛ فالأديان غير الأخلاقيَّة، والأخلاق غير الدينيَّة (التي ليست لها مرجعيَّة دينيَّة)، ستظلُّ كلُّها موجودةً معًا. ربَّما هناك شعبٌ واحد اتَّخَذَ، بوصفه شعبًا، الخطوةَ الجديدةَ بقَرَارٍ كامِلٍ- وأقصِدُ اليهود، بل أقصدُ أفرادًا عِظامًا على مرِّ العصور اتَّخذوها أيضًا، وفقط هؤلاء الذين يتَّخذونها يصيرون في مأمن من الفُحش والوحشيَّة اللَّذَين تميَّزت بهما العباداتُ غير الأخلاقيَّة، أو البرِّ الذاتيِّ البارد الحزين الذي يُميِّز الأخلاقيَّات المُجرَّدة بلا دِين. وإذا حكمنا على "الشجرة" من ثمارها، فإنَّ هذه الخطوة تُثبِتُ أنَّها خطوة نحو المزيد من الصحَّة.

ورُغمَ أنَّ المنطقَ لا يُجبرنا على اتِّخاذ تلك الخطوة، فإنَّ من الصعب المقاومة؛ فحتَّى في الوثنيَّة (Paganism) ووَحدة الوجود (Pantheism)، نجد أنَّ الأخلاقَ تجدُ دائمًا طريقَها لتُعبِّر عن نفسها. ومرَّةً أخرى، أقول إنَّ هذا ربَّما يكونُ جنونًا- جنونًا مَوروثًا في كلِّ البَشَر وحَسَنَ الطالع، على نحوٍ غريب، من حيثُ نتائجُه الإيجابيَّة- أو لعلَّه إعلان. وإنْ كان إعلانًا فبالحقِّ، تتبارك في إبراهيم جميعُ الشعوب؛ لأنَّ اليهودَ هُم الذين رَبَطوا بصورةٍ كاملةٍ وواضحة ما بين ذلك "الحضور" الرهيب الذي يحرق قمم الجبال، و"الربِّ **البارّ**" "المحبِّ للبِرّ"[١٨].

أمَّا الخيط الرابع، أو العنصر الرابع، للدِّين، فهو الحدثُ التاريخيّ. فها رجُلٌ يولَدُ من بين هؤلاء اليهود يقول إنَّه ابن الله، أو إنَّه "واحد مع" ذلك الرهيب ساكن الخليقة، ومُعطي القانون الأخلاقيّ. ويا لَهُ من فرضيَّة صادمة! ويا له من تخالُفٍ، بل هو رُعبٌ يُمكننا بتساهُل مبالَغ فيه أن نُخدَع بأن نتعامل معه بخفة وهو أمرٌ ثقيلٌ حقًّا! وهناك فقط نظرتان يُمكن بهما أن ننظرَ إلى ذلك الإنسان: إمَّا أنَّه مجنون يهذي هذيانًا من نَوعٍ مَقيت، وإمَّا أنَّه كان، ولا يزال، ما يَدَّعيه. لا يوجد حلٌّ وسط. إذا كان التاريخ المُسجَّلُ يَجعلُ من الفرضيَّة الأولى غَير مقبولة، فيجب أن تخضع للثانية. وإذا فعلتَ ذلك، فإنَّ كلَّ ما يدَّعيه المسيحيُّون يصير ذا مصداقيَّة- أنَّ ذلك الإنسان، الذي قُتل، لا يزال حيًّا، وأنَّ عند موته، بطريقة لا يفهمها العقلُ البشريُّ، قد أجرى تغييرًا

١٨) مزمور ١١: ٨٨

حقيقيًّا في علاقتنا بذلك الربِّ "الرهيب" و"البارِّ"، وأنَّ هذا التغيير هو لمصلحتنا.

والتساؤل بشأن ما إذا كان الكون كما نراه يبدو مثل صَنعَة خالق حكيم وصالح، أو يبدو ناتجًا من الصدفة البحتة أو عدم المبالاة أو الشرّ، يعني أنَّك تُسقِطُ من البداية كلَّ العناصر المتضمَّنة في المعضلة الدينيَّة.

ليست المسيحيَّةُ هي النتيجة النهائيَّة لجدلٍ فلسفيٍّ بشأن أصل الكون، بل هي حدثٌ تاريخيٌّ فاجعٌ يأتي بعد فترة إعدادٍ روحيٍّ للبَشَرية كما وصفتُ سابقًا. إنَّها ليست منظومةً علينا أن نوفِّق بينها وبين الحقيقة المُحرجة للألم، بل هي ذاتها إحدى الحقائق المُحرجة التي يجب توفيقها مع أيَّة منظومة نضعُها. وبصورة ما، هي تخلق مُعضلةَ الألم بدلَ أن تحلَّها؛ لأنَّ الألم ما كانَ ليُشكِّلَ معضلةً إلَّا لأنَّنا تلقَّينا، جنبًا إلى جنبٍ مع خبرتنا اليوميَّة لذلك العالم المؤلم، ما نظُنُّهُ توكيدًا جيِّدًا أنَّ الحقيقةَ النهائيَّةَ عادلةٌ ومُحِبَّة.

أمَّا لماذا يبدو لي ذلك التوكيدُ جيِّدًا؟ كما أَشَرتُ بصورةٍ أو بأخرى، قد لا يصل الجواب إلى مُستوى الإفحام المنطقيِّ. لكن في كلِّ مرحلةٍ من مراحل تطوُّر الدِّين، كان ممكنًا أن يتمرَّدَ الإنسان. وفي كلِّ مرَّةٍ يتمرَّد فيها، وإن كان يمارس عُنفًا تُجاهَ طبيعته، فإنَّه لا يُمارس السُّخف. يُمكن دائمًا أن يُغمضَ الإنسانُ عينَيه الروحيَّتَين عن رؤية الحضور الألوهيّ، وذلك إذا كان مُستعدًّا لأن يفترقَ عن نصف الشُّعراء العظام والأنبياء في جنسه، أو ينفصل عَن طفولته، وعن عُمق خبرته الروحيَّة

الطازجة وغناها عندما لا يجري قمعها. ويُمكنه أيضًا أن يحسبَ أنَّ القانون الأخلاقيَّ مَحضُ وَهمٍ، ومن ثَمَّ فهو يَفصلُ نَفسَهُ عن الأرضيَّة المشترَكة للإنسانيَّة عمومًا. ويمكنه أن يرفضَ اتِّحاد الحضور الإلوهيِّ بالبارِّ أخلاقيًّا، ويظلَّ بربريًّا يعبدُ الجنسانيَّة، أو الموتى، أو قوَّة الحياة الغاشمة، أو المُستقبل. لكنَّ تكلفة ذلك باهظة. وعندما نأتي عند المحطَّة النهائيَّة، وهي "التَجَسُّد التاريخيّ" الذي هو التوكيد الأقوى، فإنَّنا نجدُ أنَّ القصَّة تُشبه الكثيرَ من الأساطير التي سَكَنَت الأديانَ من البداية، وفي الوقت نفسه، ليست مثل تلك الأساطير. إنَّها غير قابلة أن يخترقَها العقلُ والمَنطق؛ لذلك لم يكُن ممكنًا أن نكونَ نحن مَن اخترعَها. فهي لا تتمتَّعُ بالوضوح البديهيِّ والمشبوه الذي يميِّزُ الإيمان بوحدة الوجود أو يُمَيِّز فيزياء نيوتن. لكنَّها تتميَّز بِسِماتٍ عشوائيَّة وغير خاضعة لقوانين. إنَّها تلك السمات التي يُعلِّمنا العلم الحديث أنَّنا يجب أن نتعايَشَ معها في هذا الكون العنيد الذي يبدو أنَّه لا يخضعُ لتفسير متجانس، والذي تتكون فيه الطاقة من مقادير صغيرة من الكم، لا يستطيع أحدٌ التنبُّؤ بسلوكها، وحيث السُّرعة ليست دون حدود، والتناقُص الذي لا رجعة فيه للطاقة الحراريَّة يجعل الزمن يتحرَّك في اتِّجاه حقيقيٍّ نحو نهاية حقيقيَّة، وأنَّه ليس ساكنًا ولا دائريًّا، بل يتحرَّك مثل قصَّة دراميَّة لها بداية ونهاية حقيقيَّتان. وإذا كانت تأتي إلينا رسالة من جوهر هذا الواقع، فيجب أن نتوقَّع أن نجدَ فيها هذه السماتِ الدراميَّة الجامحة والتي تتَّخذ مسارًا دائم العصيان على التوقُّع، وهي السمات التي

نجدها في الإيمان المسيحيّ. إنَّه يتميَّز بلمسة السيِّد- ذلك المذاق الخام والذكوريِّ[١٩] للواقع، الذي لم نصنعه، وفي واقع الأمر، لم يُصنع بصورة خاصَّةٍ لنا، لكنَّه يصدمنا في وجوهنا. وإذا كنَّا على هذه الأُسُس، أو على أُسُسٍ أخرى، نتتبَّعُ المسارَ الذي اقتيدت فيه الإنسانيَّة، ونصبح مسيحيِّين، فسوف نواجِه عندئذٍ "معضلة" الألم.

١٩) بالطبع إذا كان لويس يعيش بيننا ويقول مثل هذا الكلام، لكان قد إتُّهم بالعنصرية والشوفينية الذكوريَّة. لكنه يقصد بالذكوريِّ هُنا الذي لا يميل للحساسيَّة والذي يواجه الأشياء كما هي بقدر من الخشونة الواقعيَّة (المُترجم).